

تم تحميل هذا الكتاب  
من موقع الملفات الإسلامية  
<http://islamicfiles.net>

# لِمَ تَقْتَالُ الْكَلِمَاتِ؟

islamicFiles.Net



بقلم  
دكتور مبروك عطية  
الأستاذ بجامعة الأزهر



## بسم الله الرحمن الرحيم

### مقدمة

الحمد لله الذى خلق الإنسان علمه البيان ، والصلاة والسلام على خير من نطق بلسان ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الفوز والخسران ..  
وبعد :

فإن الكلمات ليست مجرد حركات على الشفاة ، وإنما هى معان فى الصدور ، تختلج بها وتضطرم بها كالنار ، ولا ينطفئ لها لظى إلا إذا خرجت فصادفت هواها ، وهواها أن تقال لمن هو أهل لها ، فإن قيلت لمن لا يستحق كان ذلك القول ظلمًا مبينًا ، ألا ترى إلى أول سورة الأنعام حيث يقول رب الأنعام : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (١) الأنعام: ١

أى أن الذين كفروا جعلوا لله عدلاً وهو لا يستقيم لأن ما عدلوا به الله ليس إلهاً أى ليس خالقاً السماوات والأرض ، ولا جاعل الظلمات والنور والكلمات واحدة ، فالصنم قالوا له يا إلهى ، والله وحده الذى يقال له يا إلهى ، فإن قلت إن كلمة يا إلهى لمن تقال ؟ فالجواب أنها تقال لمن خلق

السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، أى الله وحده القائل فى آيات سورة النمل : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ فَلْيَلَا مَا نَذَكَّرُونَ ﴾ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَانُوا بَرَاهَنُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٦٤) النمل : ٦٠ - ٦٤

ولا شك أن التأمل فى هذا الدين سوف يقف على كلمات تقال لله ، وكلمات تقال للرسول ، وكلمات تقال للمؤمنين ، وكلمات تقال للمشركين ، وكلمات تقال لأهل الكتاب ، وكلمات تقال للنفس ، فلمن تقال الكلمات ؟

فمما يقال لله — عز وجل — ( يا إلهى ، وربنا أننا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ) .

وما يقال للرسول ﷺ كل كلام يليق به مع خفض الصوت ، قال تعالى ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ۖ ﴾ ، وقال

سبحانه وتعالى ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ۚ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (٢) الحجرات : ٢

ومما يقال للمؤمنين كل كلام حسن ، ومما يقال للكاذبين ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ (٦) الكافرون : ٦ ومما يقال لأهل الكتاب ﴿ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٤٦) العنكبوت :

﴿ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٦٤) آل عمران

ويقتضى العمل فى هذا الكتاب أن يكون فى ثلاثة فصول :

الأول : لمن تقال الكلمات ..

والثانى : بين المعانى والكلمات ..

والثالث : الجمع بين المعنى والكلمات ..

والله أسأل أن ينفع بهذا العمل كل من يطلع عليه وأن يجعله عملاً خالصاً لوجهه الكريم ، إنه أعظم مسئول وأقرب مأمول ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

**أ.د مبروك عطية**

الأستاذ بجامعة الأزهر



فلمن يقال ( ياإلهي ) ؟

لاشك أنّ هذه الكلمة تقال لرب الأرض والسماء ، الفعال لما يشاء ،  
الذى بيده القدر و القضاء ، وبيده وحده مقادير الأشياء .

وقد تقدم ذلك كله على ( إله ) في سورة الناس ، حيث قال ربنا  
— تعالى — ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ١ مَلِكِ النَّاسِ ٢ إِلَهِ ٣  
النَّاسِ ٤ ﴾ الناس : ١ فتقدم ( رب ) و ( ملك ) على ( إله ) ؛ لأن  
مَنْ رَبِّي ؛ فقدم أسباب الحياة ، وأنعم وأحسن ، وملك الناس ، وملك  
أقواتهم وأنفاسهم كان بحق إلههم .

ولمن يقال : ( والذى نفسى بيده ) إلا لله وحده الذى يملك  
النفوس ، وقد كان ذلك من قسم رسول الله ﷺ كان يقول  
( والذى نفسى بيده ) .

ومن ثم لا يقال لإنسان كائنًا مَنْ كان ( يا من روحى بيده ) لا على  
سبيل الحقيقة ولا على سبيل المجاز ، لأن أحدًا لا يملك روح أحد ، إنما  
يملك الأرواح جميعها الله وحده رب العالمين .

وقد قال تعالى في آية الأعراف ( ١٨٠ ) : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ  
الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۚ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ ١٨٠ ﴾

## الفصل الأول

# لمن تقال الكلمات

وقال عز من قائل في آية الإسراء ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١١٠) .

فلا يقال : يا الله ، ولا يا رحمن إلا الله — عزوجل — فإن قلت : يا رحيم القلب مخاطباً بذلك إنساناً فلا بأس ؛ باعتبار القدر من الرحمة ، الذى لا يصل بحال إلى رحمة الله ذى الجلال .

فقد روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال ؛ إن الله — تعالى — جعل الرحمة مائة جزء ، ادخر عنده تسعة وتسعين جزءاً ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً منه أن ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه .

وقد قال شوقي مخاطباً النبي ﷺ .

وإذا رحمت فانت أم أو أب

هذان في الدنيا هما الرحماء

وفي البخارى وغيره قال ﷺ ( ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء ) وقال ﷺ ( مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ ) .

وكما ذكرت : لا تكون رحمة إنسان بحال من الأحوال كرحمة ذى الجلال سبحانه وتعالى ، وهذا القدر الضئيل تخاطب بالرحمة مَنْ رَحِمَكَ وأنت تعلم أن رحمته بك ليست كرحمة الله بك .

ورد في صحيح البخارى أن امرأة فقدت صبياً لها في الغزو ، فوجدته ؛ فضمته إلى صدرها ترضعه فقال النبي ﷺ : أترون هذه ملقية ولدها في النار ! قالوا ؛ لا ، وهي قادرة على منعه ؛ فقال ﷺ لله أرحم بعباده من هذه على ولدها .

ولكن علينا أن نعرف أن رحمة الله — عزوجل — التى وسعت كل شيء إنما هي للذين يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ .

قال تعالى في آية الأعراف (١٥٦) : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦) .

فصور رحمة الله التى وسعت كل شيء كيف كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، فلا يغرننا الشيطان برحمة الله الواسعة ، فنقترب المعاصى والآثام ، ونرتكب الفواحش .

وقد سبق أن ذكرت قول النبي ﷺ ( مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ ) .

وكذلك تقال كلمات الدعاء لله وحده .

القاتل : ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾

لا يجوز أن نقول : يا فلان ارفع البؤس عني والشقاء حياً كان فلان أو ميتاً .

ولا يجوز أن نقول لإنسان : اغفر لى خطيئتي يوم الدين لأنه لا يغفر لك خطيئتك يوم الدين إلا مالك يوم الدين الله وحده رب العالمين .

وقد تلقى آدم عليه السلام كلمات من ربه فتاب عليه ، وقد قال العلماء :  
إنها قول الله — عز وجل — ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا  
وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢٣) .

فلمن تقال تلك الكلمات ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا  
لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢٣) .

لا شك أنها تقال لله رب العالمين ، الذى إن لم يغفر لنا ويرحمنا لنكونن  
من الخاسرين .

وأود أن أقول : إنه لا بد من استثمار تلك المعاني فى حياتنا .

فكم من إنسان يسأل من حوله أن يقول له كلمة ترضيه ، ولكن مع  
الأسف كأنه يقول له : قل غيرها ، أو قل مقابلها .

وهذا ما يغيظ الناس ، خصوصاً الأزواج ، فالرجل يقول فى زوجته :  
أقول لها : يمين ، تقول : شمال ، ومعظم ذلك فى الكلمات .

فإن قال لها مثلاً : أرجوك ، إن رأيتنى فى حالة انفعال فاسكتى ،  
أو قولى لى : كذا ؛ فإن هذه الكلمة تريحنى ، أو يقول لها : لا تقولى لى  
هذه الكلمة فإذا بها لا تقول ما سألها أن تقوله ، وتقول ما سألها  
ألا تقوله ، إنها المخالفة .

ولله در كاتبنا مصطفى صادق الرافعى ، حيث قال : ولن يكون الحبيب  
حبيباً إذا سكت عن كلمة تسر ، وما أكثر الذين يدعون أنهم يحبون وهم  
يسكتون عن الكلمة التى تسر ، فكيف يكون هؤلاء أحبة !

وقد علمنا يقيناً من حديث رسول الله ﷺ أن الله — عز وجل — يحب  
العبد يأكل اللقمة ويحمده عليها ، ويشرب الشربة ويحمده عليها ، أى أن  
الله — عز وجل — يحب أن تقول عقب أكلك لقمة ؛ الحمد لله ، ويحب أن  
تقول عقب شربك شربة الحمد لله .

فهلاً قلت : الحمد لله عقب أكلك وشربك ، وهلاً قلت : الحمد لله  
عقب كل أمر من أمرك ، إن كان يسرك قلت : الحمد لله الذى بنعمته تتم  
الصلوات ، وإن كان يضرك قلت : الحمد لله على كل حال !

لمن يقال : الحمد لله ؟

أذكر مقولة لسبويه — رحمه الله — إمام النحاة ، كلما تذكرتها ،  
( مع أنها ما غابت عني ) دعوت له بالرحمة ، حيث قال إن ( الحمد )  
مبتدأ ، ولا يجوز الإخبار عنه إلا بـ ( الله ) .

أى أننا لا نقول : إلا الحمد لله .

فلا يجوز أن نقول : الحمد لآبائنا وأمهاتنا أو لفلان كائنًا من كان ، وإنما  
يقال : الحمد لله وحده .

ويجوز أن تقول : الشكر لله ، والشكر لوالدى لكن لا تقول : الحمد  
إلا الله ، أى تقول : الحمد لله ، ولا يجوز لك أن تقول : الحمد لوالدى ،  
ولا الحمد لزيد ، أو لعمر ، أو لنبي ، أو لولى .

ونعلم قول النبي ﷺ كما روى البخارى فى خاتمة جامعه الصحيح :  
( كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان « سبحان الله وبحمده  
سبحان الله العظيم » ) .



وفي رواية :

خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن  
« سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » .

فهلّا قلنا تلك الكلمات المحبة إلى الرحمن ربنا ، وهلا عملنا بمقتضى  
تلك الكلمات ؛ فإن لكل شيء مقتضى ، ومقتضى التسبيح أن يتره العبد  
ربه عن كل نقص لا يليق بذاته المقدسة ، وفي الوقت نفسه يتهم نفسه هو  
بالظلم ، ألا ترى إلى قول يونس عليه السلام : إِذْ نَادَى فِي الظُّلُمَاتِ ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

ومع الأسف نجد كثيراً من الناس يسبح الله تعالى ولا يتهم نفسه بالظلم  
ولا بالتقصير ، بل يقول عياناً جهاراً ، سبحانك يارب ، ماذا فعلت أنا  
كى أبتلى بكذا وكذا أو يقول لمن يخاطبه :

يا أخى ؛ أنا لا أدري ، لماذا ترف على المصائب والكوارث ، وكلما  
خرجت من كارثة وقعت في كارثة أغنى وأشد .

أو يسأل أحد العلماء قاتلاً : إننى أصلى وأصوم وأتصدق ، وأقرأ القرآن ،  
وأعمل الصالحات ، ومع ذلك أعيش فى ابتلاء دائم ، و كوارث لا تنتهى  
كأنه يريد أن يقول : يارب ، إذا كنت أصلى من أجلك ، وأصوم ،  
وأعمل الصالحات ، وأفعل كذا وكذا فكيف تبلينى ! أو كيف تتركنى فى  
كوارث ، أو كذا .... ينسى أن الصلاة والزكاة ، وغيرها من الأمور التى  
كلف الله بها العبد ، وكونه يؤدى ما عليه من التكاليف الشرعية لا يعنى  
أنه قد أدى ما عليه ولا زيادة ، ولا تعرض لابتلاء .

ولا ننسى أن العبد يمكن أن يقوم بما كلفه الله به من صلاة وصيام  
وصدقة وسلوكه سيئ ، فهو مفلس إن أراد إحساناً وتوفيقاً .

إذ إن العبادات ، وما كلف الله به عباده من التشريعات إنما شرعت من  
أجل تهذيب النفوس وتركيتها ؛ فإذا لم تفد هذه الأمور ، ولم تغير من  
سلوك العابدين كان معرضاً لابتلاء شديد ، ألا ترى أن أكل الربا موعود  
بحرب من الله ، وأن الباغي موعود بعذاب فى الدنيا والآخرة ، وأن من  
يجب أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا كذلك ، قال الله — تعالى —

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي  
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النور : ١٩)

وما أكثر المصلين المتصدقين الحاجين المعتمرين الذين يحبون أن تشيع  
الفاحشة فى الذين آمنوا ، يخوضون فى أعراض الناس ، ويتلذذون بذلك

وهناك قضية أخرى غائبة عن هؤلاء ، وغائبة عن المجالات التى يخوض  
فيها المتحدثون من الأئمة والوعاظ والذين يتحدثون فى الخطاب الدينى ،  
وهى قضية التعامل مع نعم الله — عز وجل —

فإن للتعامل مع الله — عز وجل — أصولاً وقواعد ، وضوابط ، يغفلها  
كثير من الناس بحجة التوكل على الله ، ومن ذلك ما يأتى :

١ — سوء اختيار الزوج أو الزوجة ، أو التمسك فى هذا الاختيار  
بالشكل دون المضمون ، وقد جاء شاب بين يدى أمير المؤمنين عمر بن  
الخطاب رضي الله عنه ليشهد لرجل فى قضية ؛ فسأله عمر :



— هل تعرفه ؟

قال : نعم ..

قال : عمر :

— أهو جارك ؟

قال الشاب :

لا ..

قال عمر :

هل سافرت معه ؛ فإن السفر يظهر معادن الرجال ؟

قال :

لا ..

قال : هل عاملته بالدينار والدرهم ؟

قال الشاب : لا ..

قال : يا ابن أخي ؛ إنك لا تعرفه ..

وكثير من الناس يتزوجون عن غير سابق معرفة على النحو الذى بينه عمر رضي الله عنه .

من جيرة ، أو تعامل ، أو سفر ، أو غير ذلك من الأمور التى تشهد بأننا يعرف بعضنا بعضًا ، لكنه تعارف هامشى سطحى ، لا يفيد ، إعجاب

بشكل ، وغطاء فوق الرأس بالنسبة إلى الفتاة ، أو بشكل ، وعلامة فوق الجبهة تدل على أنه من المصلين بالنسبة إلى الرجل ، وزيارات تحمل فى ظاهرها المودة ، والكرم والجود ، تظهر فيها الحسنات ، وما تحت الضلوع من خفايا وخبايا لا يعلمه إلا الله — تعالى — ويتم الزواج ، ويكون البؤس والشقاء ، وسوء العشرة ، ثم يقول أو تقول : تلك بلية وامتحان ، والله يريد أن يعذبنا !

ألم يقل الله — تعالى — ( وهديناه النجدين ) وألم يقل النبي ﷺ ( فاظفر ذات الدين ) وفى الشاب يقول : ( إن جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ) وسوف يقول لنا هؤلاء : والله لقد تزوجنا على الدين ، يقول الشاب : عرفتها من المسجد ، وكذلك تقول الشابة : والجواب : أننا ما زلنا فى حاجة إلى معرفة معنى الدين .

فالدين ليس فقط أن ترى الإنسان معتكفًا فى المسجد ، أو مصاحبًا مصحفًا ، أو متزييًا بزى المسلمين .

وإنما الدين منهج حياة .

أى أن من الدين أن يرى المتدين أن أكله من عمل يده أفضل أكله ، فهو ليس متطفلًا ، ولا آكلا أموال الناس بالباطل ، قال عليه الصلاة والسلام : ( ما أكل أحد طعاما قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده ) .

والمتدين هو الذى يرى الدين سلوكًا فى القول موضوع هذا الكتاب ، وفى العمل الذى يصدق ذلك القول ، قال الله — تعالى

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾  
الصف: ٢ - ٣

والمتدين هو من يرى الوقت عمره ، والعمر غال عند العاقل فضلاً عن المتدين الذى صقل عقله بحكمة ربه ، فاستجاب له وللرسول قال الله - تعالى - :

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾  
الأنفال: ٢٤ وقال عز وجل : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ النساء: ١٠٣

وليس من الدين أن ترى المرء محافظاً على إقامة الصلاة في أول وقتها فإذا كان بينك وبينه موعد في السادسة مساء مثلاً جاءك في السابعة ، ثم يتعلل بقوله : إنه الطريق و أزمة المرور ، وكذا وكذا .

كان عليه - وقد عرف أن المرور في أزمة ، أن يحسب حساب تلك الأزمة ، فيخرج من بيته قبل مواعده بفترة تسمح له بأن يأتيك في السادسة إلا خمس دقائق ، لا بعدها .

وقال الله - تعالى - في آية يوسف ﴿لَتَأْتِيََنَّ بِهِ ءِلَآ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾  
يوسف: ٦٦

ولو استثمرنا هذا المعنى في حياتنا لتغير وجه الحياة الكئيب ، إذ في وسع كل إنسان أن يأتي بما كلف به ما دام حياً ، لا يمنعه منه إلا الموت .

لكننا نتعلل بظروف ، ونحن في الغالب كذابون ، أو متكاسلون ، والمتدين لا يعرف الكسل ، ولا يعرف الجبن ، ولا يعرف ( إن شاء الله ) بمعناها الحديث ، وهو أنه لن يفعل ، وإنما معناها أنه سوف يفعل يقيناً لا تخميناً قال تعالى في آية الكهف ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَآءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَآءَ اللَّهُ ﴿٢٤﴾﴾ .

قال : فاعل ، ولم يقل : لن أفعل .

والمتدين هو الذى يرضيه التمام والإتقان ولا يرضيه النقص و( الفبركة ) قال المتدينون الذين قال الله - تعالى - فيهم ﴿إِنَّهُمْ فَتَنَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ : ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١١﴾﴾ الكهف: ١٩

والمتدين عف اللسان ، لا ينطق بالفاحشة ولا بالسوء ، قال عليه الصلاة والسلام ( ليس المؤمن بسباب ولا فاحش ولا بذيء ) .

وهكذا نعرف المتدين ، الذى إذا جاءنا معه النبل والخير ، والأدب الجم ، والخلق الحسن ، وإذا غاب عنا غاب عنا هذا القيص من العطاء ، وغابت عنا محاسنه ، فإذا بنا في حضوره نشعر بأننا نرتوى ونتزود ، وإذا بنا في غيابه نستوحش ، وتتناقص فينا المعاني .

وأفضل كلمة في هذا السياق كلمة أنس بن مالك رضي الله عنه حين قال : حين جاء رسول الله ﷺ إلى المدينة أضاء فيها كل شيء ، ويوم مات رسول الله ﷺ أظلم فيها كل شيء .



ولا أقول ذلك في أحد ، ولن يرقى أحد إلى مستوى هذه العبارة ، حتى نقول : يوم جاءنا أضاء كل شيء حولنا في مدينتنا ، أو في قريتنا ، ويوم مات أظلم كل شيء حولنا ، في مدينتنا أو في قريتنا .

فلمن تقال هذه الكلمات ؟

لا شك أنها تقال فقط في رسول الله ﷺ لأنه أكرم الناس ، وأجود الناس ، وأطيب الناس وأشجع الناس ، وأنبل الناس ، هو أنقى الناس لله — عز وجل — وهو أخشاهم له — عز وجل — وهو من حيث النسب والحسب من بنى إسماعيل عليه السلام من كنانة ، ثم من قريش ، ثم من بنى هاشم فهو خيار من خيار من خيار ، ولد من نكاح لا من سفاح ، كان قبل البعثة الشريفة أندي فتى في قريش ، ما جرب الناس عليه كذبا قط ، وهو بعد البعثة الشريفة رحمة الله للعالمين ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٧) الأنبياء: ١٠٧

أوسع الناس صدرًا ، وأصبر الناس على البلاء ..

وضع ابن مسعود يده عليه وهو مريض فلم يستطع إبقاءها لشدة حرارته ، وقال له في ذلك ؛ فقال : إني أبتلى بما يبتلى به الرجال منكم ، قال : أو لأن لك أجرين يا رسول الله ؟ ، قال : نعم ..

وكان بيته ﷺ بيت الأمة ..

ماقال لسائل : لا ، وإنما إذا وجد حاجته عنده أعطاه وإلا قال له : ابتع علي ، أي اشتر والحساب عندي .

وقال للناس : مَنْ مات وله مال فلورثته ، وَمَنْ مات وعليه دين فأنا وليه ، وعلى سداده .

اتسع صدره ﷺ للرجل ، وللمرأة ، وللمسلم ، والكافر ، والكتابي ، والأعرابي الجافي ، وعمل بيده ، وأمر بالمعروف وكان أول من فعله ، ونهى عن المنكر وكان أول من اجتنبه كادت نفسه تذهب حسرات على الناس ؛ لأنهم لم يؤمنوا جميعًا .

وشكر الله نعمه ، وتوكل عليه ، وبشّر ويسر ، وقال لسائله عن الحج : أفى كل عام يا رسول الله ؟ قال : لو قلت : نعم لوجبت ولما استطعتم ، قال فيه رب العزة — عز وجل — لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ التوبة: ١٢٨

هو وحده الذي يوم جاء أضاء في المدينة كل شيء ، ويوم مات أظلم فيها كل شيء .

ولكن لنا أن نقول :

يوم جاءنا فلان أضاء فينا الكثير ، ويوم غاب أظلم فينا الكثير .

إذ إن غير رسول الله ﷺ أقل منه ﷺ بكثير ، لكن أن تقول هذه العبارة ، بل أعظم منها أحيانًا فيمن لا يستحق بسرعة ، وقبل أن تعرفه فذلك استنزاف لغوى ، إما أننا نحفظه ولا نعيه ، وإما أننا نستترف مشاعرنا قبل الألوان ؛ فإذا بها تسيل على بلاط الخيال ، فإذا جاء الواقع شاهدًا بأننا قلنا لمن يستحق عبارة عصرنا فيها كل مشاعرنا

فلم يعد فيها شيء جديد قد يأتينا ، وفيه ما يستحق أن نقول له تلك العبارة :

وما أكثر الذين كرهوا الكلمات الجميلة ، وأحجموا عنها ؛ لأنهم قالوها قبل ذلك لمن لا يستحق حرفاً واحداً منها .

غاية ما هنالك أنك يجب أن تحتس قبل إطلاق الكلمات ، فلا تقل كلمة لإنسان إلا إذا كنت على يقين أنه يستحقها .

وغاية ما هنالك أنك إذا تزوجت على الدين من حيث رأيت أن الدين شكل ، وذقت وبال أمرك فلا تلومن إلا نفسك ، ولا تقل : إن الزواج قسمة ونصيب ، فأنت على خطأ حين تزوجت بسرعة دون سابق معرفة ، وعلى خطأ آخر حين قلت : إن الزواج قسمة ونصيباً كما توهمت .

فإن قلت : أليس مكتوباً منذ الأزل عند الله أن فلاناً سوف يتزوج فلانة ؟ قلت : بلى ، ذلك مكتوب عنده — تعالى — ولكن بناء على علمه القديم بما سيكون من اختيار عباده بعضهم بعضاً ، لا باعتبار ما كتبه عليهم قدرًا مقدورًا .

٢ — ومن تلك القضايا أن تقود سيارة وأنت لا تحسن قيادة السيارات ، فإذا بالحادث الجلل الذي إن نجوت منه كان ذلك من محض فضل الله عليك لكن الاحتمال الأكبر ألا تنجو ، فهل هذا من الابتلاء ؟

إنه من الابتلاء حقاً ، ولكن ذلك الابتلاء الذي نصنعه بأيدينا ، فإذا كان لوم فلا لوم إلا على أنفسنا .

هل ترى الدين في تلك المسألة أن تصلى ، وأن تصوم ، وأن تقرأ القرآن الكريم ، وأن تقود سيارة وأنت لا تحسن القيادة ، تزعم بأن صلاتك وصيامك ، وتلاوتك للقرآن الكريم سوف يغنيك عن القيادة ، وسوف تصل بهم إلى ما تريد !

هذا من الأمور العجيبة التي يعتقدونها كثير من الناس ، وهم واهمون ، وعلى خطر وخطأ عظيم .

فمن قديم قال الناس : أعط القوس باريها وقال عليه الصلاة والسلام : تعلموا الرماية ، ويوم أصاب القرح المسلمين يوم أحد وقف أبو طلحة رضي الله عنه يدافع عن رسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام : مَنْ كان معه كنانة فليشرها أمام أبي طلحة ، وكان رضى الله عنه أستاذًا في الرمي .

ولولا أنه ﷺ كان أستاذًا في الرمي لما قال فيه رسول الله ﷺ تلك الكلمات .

ما قال ﷺ مَنْ كان معه كنانة فليشرها أمام مَنْ يقيم الليل ، أو أمام أبي موسى الأشعري ؛ فإنه أوتي مزمارة من مزامير داود عليه السلام وصوته من أجمل الأصوات في تلاوة الذكر الحكيم .

( أعط القوس باريها ) تلك حكمة الإسلام التي من يوم غابت وقد تخلفنا كثيرًا عن ركب الحضارة والتقدم .

لقد أعطينا العيش غير خبازه ، ففسد ، وما صلح لطعام .



وأسلمنا زمام الخطاب الديني لغير الأكفاء فغيبوه ، حتى غبنا عن أصول الدين ، وجوهره المكفون ، وصار الناس يعرفون الدين شكلاً ، ويحفظونه قصصاً من غير عبرة ، سئم منهم من سئم ، وعزف عنه مَنْ عزف ، وصار كل شيء عند هؤلاء حراماً ، فصار كثير من الناس يبحثون عن السعة ، وعن الحلال في غير الدين ، وأسلمنا الإدارة مَنْ لا يجيد الإدارة ، فغابت المصلحة تبعا لخيبة الرزازة ، وأسلمنا المال — عصب الحياة — إلى مَنْ زعمناهم يتقون الله فيه وفيما بغض النظر عن مهاراتهم الاقتصادية ، ومعرفتهم بفن المضاربة ، التي ما شرعت في الإسلام إلا من أجل تحقيق الربح .

وأنا أقول : مادام في كتاب الله — عز وجل — قوله تعالى ( قل هو من عند أنفسكم ) فإن المجلدات لا تكفيني هنا من أجل سرد النماذج التي تدل على أنّ مواقف كثيرة في حياتنا يصح أن يقال فيها : هي من عند أنفسنا ، ومع الأسف الشديد نظنها من الابتلاء السماوي الذي لا مفر منه ، ونقول : كيف نصلي ، ونصوم ، ونتصدق ، ونقرأ القرآن الكريم أثناء الليل وأطراف النهار ، ويصينا من الكوارث ما لا خلاص منه .

ولا بد أن نصاب بها مادامنا نلسع من الجحر ألف مرة ، ومن الحكمة والحديث : لا يلسع المؤمن من جحر مرتين .

فلمن تقال الكلمات ؟

لله رب العالمين حاشاه ، أم لأنفسنا عسانا أن نتوب من أبشع الذنوب ، وهي تعاملنا مع نعم الله — عز وجل — على غير علم فلا تقل : يارب ، لم فعلت بي هذا ! وإنما قل : يا نفسي ، لم فعلت هذا ؟

وإذا أعطيت مالك مَنْ لا يحسن القيام عليه فلا تقل له : لم ضيعته ؟

وإنما قل لنفسك : لم أعطيته ؟

وإذا سلمت ولدك الحدث سيارتك الفارهة فضاع ، أو ضاعت ، أو ضاعا معاً فلا تقل : لم كتبت على يارب هذا ؟

وإنما قل :

— أنا الذي أخطأ ، حين سلّم السيارة للطفل أو للشاب غير المدرب على القيادة .

٣ — ومن أمثلة ذلك أن تعطى من استدانك مالاً دون أن تكتبه وتشهد عليه ، فإذا به يقول لك : لا مال لك عندي ، عندئذ لا تقل له : أيها الخائن ، يا قليل الدين ، وإنما قل : ندبني الشرع إلى الكتابة والإشهاد لكنني لم أقل بالاً إلى ذلك ، وأمنت ، أو ظننت أن سؤالاً إياه أن يكتبه أمر يهينه ، ويجرح كرامته ، وكأنك ترى أن الشرع الذي ندبك إلى ذلك شرع لا يصلح .

لم تأخذ بالأحوط ، مع أنك تعرف أن أطول آية في كتاب الله — تعالى — آية الدين ، وهي الآية (٢٨٢) من سورة البقرة حيث

قال الله — تعالى — ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاسْتَبَوْهُ وَلَيْكُتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكُتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَوَقَّ اللَّهُ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا سَعَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

البقرة: ٢٨٢

وتقال كلمات الشكر لمن أسدى إليك معروفًا ، فقد جاء في الصحيح قول النبي ﷺ ( مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ ) .

فلا يستجيب للمقولة الشائعة التي ورثناها ( لا شكر على واجب ) .

فالشكر يكون على واجب بدليل أن الله — تعالى — هو الشكور — قال عز وجل ( والله شكور ) وشكر الله — تعالى — عباده إنما هو على أداء عباده الواجب الذي كلفهم الله به .

وبعض الناس يشكر من لا يقدم عملاً ، وينسى أن يشكر من يقدم عملاً .

أو على النحو الذي نراه من الشكر الجزيل لمن قدم عملاً يسيراً ، وهجر من عمل العمل العظيم .

وليس أول على ذلك من شاب يشكر أم زميله شكراً يكاد يكون دواوين من الشكر من أجل وجبة أو كوب شاي .

ولا يشكر أمه التي تطعمه العمر وتسقيه ومن قبل حملت به ، ووضعتة وهنا على وهن .

والله عز وجل يقول : ( أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير ) .

والعربية تعرف الفرق بين أسلوين ، بين : أشكر ، وأشكر لك ، وكلاهما يثبت الشكر ، ولكن ( أشكر ) فيه زيادة في الشكر ، وإن شئت فقل : إنه منتهى الشكر .

أقول ذلك ؛ لأن الله — تعالى — يقول ( أشكر لي ولوالديك ) أى : أشكر لي وأشكر لوالديك ، بالتعدى بالام فيهما أى عليك أن تبذل قصارى جهدك في شكر الله — عز وجل — الذى خلقك من عدم ، ورزقك وآواك ، ومن جميع نعمه أعطاك ، ومن كل سوء نجاك .

وعليك أن تبذل قصارى جهدك في شكر لوالديك اللذين كانا سبباً في وجودك وبذلا ما في وسعهما وزيادة من أجل إسعادك .

لكن شيوع هذه العبارة ( لا شكر على واجب ) وراء هذا الفساد .



وتأمل تلك الزوجة التي كادت تطير من الفرح والسعادة ، وتكاد تكون أميرة الشعراء في شكر زوج أختها أو جارها الذي عاد من عمرته ، ولم ينسها فأني لها بمهدية ( متواضعة جداً ) .

وحين عاتبها زوجها معاتبة خفيفة ، غايتها أن تخفف من حدة المبالغة فردت عليه بقولها : يكفي أنه تذكرني .

وأنا أقول : وزوجك ذلك الذي يتذكرك عمره ، ليل نهار ، وهو يأتيك بالأطياب من الطعام والشراب ، والجميل من الثياب ، وغير ذلك ، لماذا لم تنتفضي ذات يوم بسعادة حين جاءك بعشرات الأشياء ، ولماذا لم تحفظي بيتاً من الشعر ، تسعفينه به إرضاء له ، وشكراً .

لا شك أنها ترى أن لا شكر على واجب ، وكذلك الزوج الذي شكر الجارة شكراً جزيلاً لأنها قدمت إليه وإلى زوجته طبقاً من الأرز باللبن يوم نجح ولدها ، وأخذ يقول : سيدة ذوق ، وعظيمة ، وذات أدب جم ، وحسن جيرة ، وأرزها لم يصنع من قبل ، ولم أتذوق في حلاوته أرزاً بهذا الشكل أبداً من أيام المرحومة والدتي .

ونسي أن زوجته — المسكينة — لطالما صنعت له الأرز المسلوق ، والمعمر ، والمخلوط بشعرية ، وبالمكسرات ، والمغمور داخل الكرنب والبادنجان وغيرهما ، ولم يقل لها كلمة شكر واحدة .

فلمن تقال الكلمات ؟

لا شك أن شكر الذي أهدي إلينا شيئاً من الواجب ، لكن شكر من أهدي إلينا أشياء أوجب ، ألا نعرف الفرق بين ( الواجب ) و ( الأوجب ) !

اللهم صل على آل فلان ..

روى البخارى في صحيحه عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : ( اللهم صل على آل فلان ) .

فأتاه أبي بصدقته ، فقال ( اللهم صل على آل أبي أوفى ) ..

تقال هذه الكلمة لمن أتى زكاة ماله ، أو تصدق ، ومعنى اللهم صل : أى اللهم أرحم وفي البخارى كذلك .

يقول النبي ﷺ رحم الله أبا بكر ، حملني إلى دار الهجرة ، وزوجني ابنته .

فهل وعى الناس هذا الدرس ؟

ألا ترى إلى قول الله — تعالى — ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٠٣) التوبة: ١٠٣

أرأيت كيف جاء التعبير ( صل عليهم ) في سياق الصدقة ، فإن قلت : على من يصلى رسول الله ﷺ فالجواب أنه يصلى على من يتصدق ؛ لأن الصدقة أفضل العبادات ، وهي دليل صدق إيمان العبد ، وقد قال الله

— تعالى — ﴿ وَمَنْ يُؤَقِّ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) الحشر: ٩

الأقربون أولى بالمعروف ..

والأقربون في هذا الدين أولى بالمعروف ، ويتبادر إلى الأذهان أن المعروف يكون فقط في المنح والعطايا المادية ، والحق أنه يكون المعروف في المنح والعطايا المادية يكون كذلك في الكلمات .

ألا ترى إلى قول الله - تعالى - في آيات سورة الإسراء ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْذِرْ بَذِيرًا ۚ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۚ وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۚ﴾ (الإسراء: ٢٦ - ٢٨)

وقد مثل بن كثير وغيره من المفسرين للقول الميسور بـ ( إن شاء الله يأتي الخير وأرسل إليكم ) ونحو ذلك .

وذلك حال الضيق ، الذي عبّر عنه ربنا - تعالى - بقوله ( وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ) .

ما قال ربنا ( وإما تعرضن عنهم لضيق ذات يدك، أو لعسرك ) وإما قال ( ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ) .

ولذلك أقول هنا : إن على المسلم الذي يعيش حال ضيق أو تأخر رزق أن يقول : أنا أعيش في حال رجاء في رحمة ربي ، فذلك من توجيهات القرآن الكريم الغائبة عنا ، حين يسيطر الضيق علينا ، ويغلبنا اليأس ، وإذا بالكثير منا يقول لمن له حق عليه إذا جاءه في هذه الحال كلاما غير

ميسور ، بل قد يغلط له بالقول إلى حد الفحش ، فيقول له : من أين ؟ والعبد وسيده ، وأنا على الحديدة ، وأنت وأمثالك سبب في ابتلائي ، وسبب فيما وصلت إليه من سوء الحال ، ثم يصرخ قائلاً : أغرب عن وجهي ، فلا أرينك مرة أخرى ، يا وجه كذا ، يا كذا ، يا كذا .

إلى آخر هذا الوابل من السوء ، الذي نسمعه ونشاهده في الأعمال الدرامية وغيرها .



بين المعاني والكلمات :

أماننا في هذا الفصل قضيتان ..

الأولى : وجود المعاني وفقد الكلمات ..

والثانية : وجود الكلمات وفقد المعاني ..

أما القضية الأولى وهي وجود المعاني وفقد الكلمات فهي بالنسبة إلى القضية الثانية هينة ، وخلاصتها أن الناس يملكون المعاني ، ولكنهم لا يملكون الكلمات ، والذين يناهم نصيب من تلك المعاني لا يملكون الكلمات كذلك ، فأنت ترى الرجل نبيل الصفات ومن تلك الصفات صفة الكرم والجود .

ترى الرجل يعطي عطاء ماديًا متقطع النظر لكنه لا يقول لمن يعطيه كلمة طيبة ، تسبق هذا العطاء ، أو تصاحبه ، وكأنه يقدمه في صمت . وكذلك الحال عند الذي يُعْطَى ، فهو يأخذ الكثير ، ولا يعطي كلمة شكر وامتنان ، وهذا من السوء بلا شك .

أرأيت إلى سليمان عليه السلام وقد علمه الله منطلق الطير ، فلما أتى على واد النمل قالت نملة يأيتها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، قال الله - تعالى - ﴿ فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ

النمل: ١٩ ﴿١٩﴾

## الفصل الثاني

## بين المعاني والكلمات

ولعلك تقف مليا عند قول امرأة عمران : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣٥) آل عمران: ٣٥ لتقول : مَنْ في الناس يقول : يا فلان تقبل مني هذه الهدية ، أو أرجو أن تعجبك ، وأن يعجبك اختياري !

هناك من يقول ذلك ، وعلى متن المبالغة ، أحيانا ، ولكن كما ذكرت هنا لمن غيره أولى منه في ذلك ، أى يقدم للغريب ، فيتخفه بالهدايا القيمة المقرونة بالكلمات الجميلة الطيبة ، وإذا قدم إلى قريب قدم له على صمت ، أو قدم له كما أقول — الحياة على طبق الموت —

كالذى يقول لزوجته وأولاده : خذوا ، فلستم تصلحون لشيء إلا للأخذ ، أتعبتموني وأرهقتموني ، وكلفتموني إلى آخر تلك الكلمات ، المؤذية ، والتي تفقد الذى تعطيه من العطاء .

ومن قديم قال الناس ( لقينى ولا تغدبنى ) أى أننا نؤثر حسن اللقاء على عظيم الغذاء ، وهذا أيضا إذا اضطررنا ، لكننا لسنا مضطرين إلى ذلك ، حيث إننا نملك أن نعطي ، ونملك أن نتكلم .

وفقد الكلمات إما فقدها بالكلية ، فلا كلام أصلاً إلا بإشارة ، وأصوات معروفة ، غير مفهومة ، ويصح أن نطلق عليها المشترك الجديد ، الذى هو بخلاف المشترك اللفظي المعهود من قديم ، لكن المشترك الجديد هو الذى يفهم منه أكثر من معنى ، كل هذه المعاني تصب معاً في قناة الملل ، لعدم الإحساس من قبل المعطى ، الذى قد يكون منتظراً كلمة تسر ، تكون بمثابة المكافأة .

أذكر في هذا السياق ما ذكره العلامة السهيلي في الروض الأنف يوم أحد ، حيث التقى عبد الله بن جحش وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما فقال عبد الله بن جحش لسعد : سوف أدعو دعوة وتقول : آمين ، ولندع أنت دعوة ، وأنا أقول آمين ، وسأله أن يبدأ ؛ فدعا سعد بقوله ( اللهم لقنى اليوم فارساً شديداً بأسه ، أقتله وأخذ سلبه ، فقال عبد الله بن جحش : آمين ، ثم قال عبد الله : اللهم لقنى اليوم فارساً شديداً بأسه ، يقتلنى ، ويجدع أنفى وأذنى حتى ألقاك ، فتسألنى : فيم جدعت يا عبد الله ؟ فأقول : فيك يا ربى وفى رسولك ؛ فتقول : صدقت يا عبد الله .

فتردد سعد أن يقول : آمين ، فذكره عبد الله بالوعد ، فقال : آمين ، وقد كان كما قال فهذا رجل سأله الله الشهادة ، وقطع أنفه وأذنيه ؛ ليسأله ربه : فى أى شيء كان ذلك ! فيقول : فيك ياربى وفى رسولك ، فيقول له الله : صدقت يا عبد الله .

إنه يشهى أن يقول الله له : صدقت يا عبد الله ، ومن أجلها سأل ما سأل .

وكم من أناس يشتهون من الرئيس المباشرة لهم ، أو من زوج ، أو من زوجة ، أو من ولد : شكراً ، لكنهم لا يقولون .

وكم من زوجة تشهى أن يقول لها زوجها كلمة شكر بعد جهاد عنيف مع المطبخ ، وإعداد ما لذ وطاب ، لكنه لا يقول .



ويقول بعض الناس الذين يقدمون العطاء المادى يكفى أننا نقدم كل جميل ، وما تقدمه أفضل مما تقوله ، إننا نحيل الكلام عملاً ، إننا لا نعرف التزويق في القول :

— مثل كثيرين — ولا نعمل ، إننا نعمل في صمت كأهل السياسة الذين يهتفون ليل نهار : دعونا نعمل في صمت .  
وأنا أقول : لقد عمل النبي ﷺ مع أصحابه في حفر الخندق ، ولكن لم يكن عمله في صمت ، كانوا ينشدون وهم يعملون ..

لَا هَمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا

وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَيْنَا

فَأَنْزَلَنَّا سَكِينَةً عَلَيْنَا

وَتَبَتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَا قَيْنَا

إِنْ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا

وَإِنْ يُرِيدُوا فِتْنَةً أَبِينَا

فما المانع بين أن نجتمع بين العطاء المادى والكلمات ، صحيح نحن نؤثر العمل على الكلام ، لكن ما الضرورة هنا وأنت قادر على الأمرين معاً ، أما إذا كنت عاجزاً عن العطاء المادى فلتكن كما قال الشاعر :

لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالُ

فَلْيُسْعِدِ النَّطْقُ إِنْ لَمْ يُسْعِدِ الْحَالُ

وإذا كنت عاجزاً عن الكلام ، فأنت كما قال عثمان بن عفان رضي الله عنه .  
إن الناس في حاجة إلى أمير فعال ، لا إلى أمير قوال .  
ولكل وجه .

أما إذا كنت قادراً على العطاء المادى والكلمات فإن مثلك كمثل القائل :

« ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا » .

وأما قضية فقد المعنى ووجود الكلام فأشد خطراً على الفرد والأمة من القضية الأولى ؛ لأن الكلمات مع فقد المعاني بمثابة السراب ، الذى قال الله — تعالى — فِيهِ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَاقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ النور: ٣٩

ومعنى الآية أن أعمال الذين كفروا شبهها الله — عز وجل — بسراب بصحراء يظنه القادم من بعيد ماء يروى وهو على حالة من الظم الشديد ، فإذا به يجرى نحوه على أمل أن يصل إليه فيرويه ، حتى إذا جاءه بعد جهد عنيف ، وتعب شديد لم يجده شيئاً ولم تكن أمامه فرصة لكى يرى من بعده سراباً آخر يجدد فيه الأمل ، بلبل الصدى ، ورى الظما ، وإنما يجد هنالك ربه الذى كفر به ، وقد أرسل إليه رسله مبشرين ومنذرين ، لكنه أثير العمى على الهدى ، والكفر على الإيمان ، ومات على كفره وفسوقه وعصيانه ، فالله يحاسبه ، ويوفيه حسابه ، والله سريع الحساب .

كذلك الحال في قصور الكلمات ، أنها مشيدة من وهم ، ومبنية على فراغ ، وزينتها سراب ، وهواؤها مرّ ؛ وطعمها حنظل وركوبها عند السفهاء سهل ، ونزولهم منها دمار ، وكم حطمت قلوباً ، ودمرت شباباً ، وأفسدت أماً .

تكلم الكلمات التي تقال ، ولا يصحبها دليل صدق من عمل ، قال الله تعالى - ﴿ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ الصف: ٢ - ٣

قال لها أحبك ، كم أحبك ، لا تدرين معنى هذا الحب الكبير الذي يحمله قلبي لك ، لا أرى غيرك ، ولا أرغب إلا فيك ، فأنت شاغلي وشغلي ، أرى صورتك فوق كتابي ( مع أنه لا يفتح كتاباً ) وعلى ورق الشجر ، وبين الرياض ، وفي أفق السماء بين النجوم ، وعلى صفحة القمر ، يا قمر ، لا ، بل يا أجمل من القمر .. ليس في مثل جمالك امرأة ( مع أنها ليست جميلة ) وحشى ذلك بالأغنيات ، وبما يحفظ من مكسور الشعر إلى غير ذلك ، فأوقعها في حبه وغرامه ، وشغلها من كل شيء ، بنى لها من الأوهام قصوراً ، وصور لها الظلمات نوراً ، فإذا بها رهن إشارته ، وتحت أمره أفقدها كل شيء ، وأهم شيء أفقدها إياه عقلها .

وإذا فقد العقل فقدت معه البكارة ، وغيرها من أجل ذلك قيلت هذه الكلمات لمن لا عقل لها أصلاً ، لو كانت ذات عقل لما استمعت إليه ، إلا وهو في بيتها ، يخطفها ، ويرى أهلها بيته الذي أعده من أجلها ،

وما توفر لديه من إمكانات تجعله لها الكف المنشود ، ساعتها يتحقق فيه قول النبي ﷺ ( يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ) . ما قال : فليحب ، أو ليفرغ ما في قلبه من شحنات العواطف الجياشة ، التي لا يقوى على كتمانها ، وإنما قال : يتزوج .

فهل ربينا أبنائنا على ثقافة الزواج ، لا على ثقافة الحب ، وعيد الحب ، والذي تجمع فيه الدباديب والورود ، وأصله قتل رجل دين أبي إلا الزواج عندما رأى الإمبراطور أن الزواج يعطل الشباب عن الجهاد ، فنهى عنه ، وأمر رجالات الكنيسة ألا يعقدوا عقد زواج واحداً ؛ فما كان من هذا الراهب ( فلانتينو ) إلا أن يعقده حتى لا يعطل شريعة السماء ، فصلبه الإمبراطور ، وجعلناه نحن عيداً للحب ، وكان الأولى أن يكون عيداً للزواج .

وقدما أعمالاً درامية ، وكتباً وقصصاً غرامية ، وسهرات طويلة ممتدة ، فيها الكلمات وليس فيها المعاني ، فضاعت بذلك الدنيا .

فلمن تقال هذه الكلمات ؟

للزوجة أم للشابة التي يصطادها صاحب الكلمات من أجل غرض معروف ، بعدها لا يُسمعها شيئاً من تلك الكلمات ، وإنما يُسمعها مقابلها ، هو الذي قال لها ذات يوم أنت أجمل امرأة في الدنيا والآن بعد أن نال غرضه منها يقول لها : « هل تظنين نفسك امرأة ! هل تعتقدين أن مثلي يمكن أن ينظر إلى مثلك ، أو أنني أفكر في مثلك كي تكون زوجة لي ! إن مثلك لا تصلح أن تكون لي زوجة » فإن قالت له : وما الذي حصل بيننا



قال : لم أرغمك ، كنت تريدني ذلك ، وإن قالت له : والغشاء الذي مزقت ! قال لها : لست أنا أول رجل في حياتك ، وأنت أدري بالذي فعل هذا ، إلى آخر تلك المأسي ، التي لا علاج لها إلا بالتوبة النصوح . قال تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٨﴾

التحریم: ٨

وهي عزيمة وقرار في القلب على عدم العود إلى الذنب أبدًا .

وكلمات تقال للشعوب من قبل الحكام والنواب ومن تولى أمراً من أمور المسلمين ، ألا تراها براءة مشعرة بالاهتمام .

لمن تقال الكلمات ؟

أتقال لشعب هو أمانة في عنق الحاكم ، وهو الراعي وكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، فهل صدق ؟

كلمات مفقودة ..

قال العلماء : في قول الله — تعالى — ﴿ يٰٓبُنَيَّ إِنِّي أَخَرْتُكَ فِي الْمَنَامِ إِنِّي أَدَّبُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۝١٠٢﴾ الصافات: ١٠٢

إنما قال إبراهيم هذه الكلمات لإسماعيل — عليهما السلام — مع أنه مصدق رؤياه ، فرؤيا الأنبياء حق ، ووحى ، وهو لا بد فاعل ؛ حتى يوطن

نفسه أي نفس ولده على القبول ، وحتى لا يكون ذلك مفاجأة ، ومن ثم رد عليه بقوله ﴿ قَالَ يٰٓأَبَتِ أَفَعَلَّ مَا تُوَمَّرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝١٠٣﴾

وكان أن فداه الله من عليا سمائه بذبح عظيم .

فقدنا روح الكلمات في حياتنا ، فصرنا لا نسمع من عزم على أمر مثل هذه التوطئة الطيبة التي تجعل النفس مهيأة لقبول ما عزم عليه ، وهي كلمات ، لكنها مفقودة .

وفي حادثة الإفك عندما شعرت أم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — بأن رسول الله ﷺ لم يرد على قوله — لها — وهي مريضة ( كيف تيكم ) أي كيف حالك .

وقد جرت عادته إذا مرضت أن يقول لها ذلك ، ويرقيها ، ويدعو لها ، والأمر بلا شك صعب ؛ فقالت : هل لى أن أذهب إلى أبوى ! كلمات قيلت في المرض ، برغم ما في النفس من معاناة قبل أن يتزل الوحي الكريم بتبرئة البريئة وكلمات قيلت له : من أجل الاستئذان .

واليوم إذا غضب الرجل ، ولو لأتفه الأسباب امتنع عن الكلام .

وإذا غضبت المرأة ذهبت إلى أبويها بدون استئذان !

والحوار الذى كان صار اليوم مفقوداً كذلك ، حيث إننا صرنا نعرف لغة الحوار ترجمة لما في النفوس من أمور غريبة ، ليس فيها شيء يمكن أن يقال فيه سوى ( فهي علل وأمراض ) ورثناها من تراكمات الهموم

والأوجاع والثقافة السيئة ، والخطاب الديني الرديء ، البعيد عن بناء الشخصية المسلمة على عزم الأمور ، كما صرنا نعرف الحوار كما يقال بالذراع ، لا بالكلمات ، فإذا كان الحوار بالذراع ، والرمى بالحجارة ، وقذف الناس في وجوههم بماء النار ، وطلقات الرصاص .

فلمن تقال الكلمات ؟

وما ثمرة البيان الذى علمه الله — تعالى — الإنسان ( الرحمن . علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ) .

وأين الكلمات الطيبة ، التى قال فيها ربنا — تعالى — ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ٢٤ ﴾ تَوَفَّى أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥ ﴾ إبراهيم : ٢٤ — ٢٥ والتى قال فيها النبي ﷺ ( الكلمة الطيبة صدقة ) .

وأذكر فى هذا السياق ما دونته كتب السيرة والتاريخ فى قصة إسلام سعد بن معاذ ؓ فقد كان مثل غيره من الذين يكرهون الإسلام ولا يحبون أن يشيع فى بيئتهم ؛ لأن الناس اعتادوا الحياة وألفوها على ما كان يعبد آباؤهم ، وهذا الدين الجديد القادم يزعمون أنه يفرق بين المرء وزوجه ، وبينه وبين والده وولده .

وكان النبي ﷺ قد بعث مصعب بن عمير ؓ فى المدينة يعلم الناس الدين ويقرأ عليهم كلام رب العالمين .

وقدم سعد بن معاذ على مصعب بن عمير وهو جالس مع بعض أقاربه فى بستانه ، وكان قد أسلم ، أراد سعد أن يفتك بمصعب ، وحدثه بغلظة ، وسأله الانصراف عن قومه ودياره .

لكن مصعب بن عمير ؓ قال له بهدوء المسلم وثباته : هلاً جلست ؛ فتسمع ، فإن رأيت خيراً اتبعته ، وإن كانت الأخرى فلن يكرهك أحد ، فقال سعد :

— هذا والله — هو النَّصَف ( العدل ) .

وجلس ، واستمع ، ورأى الخير ؛ فأسلم ، ثم قام فدخل بيوت قومه ، وكان سيدهم ، وقال لأهل كل بيت .

ما تعدوننى فيكم ؟

فأجابوه :

— سيدنا ورئيسنا .

فقال : وأنا أسلمت ، واتبعت دين محمد ﷺ وأنا عليكم حرام ما لم تسلموا ؛ فأسلموا جميعاً ..

وصار سعد من أعلام الإسلام ، وهو الذى اهتز عرش الرحمن لموته يوم مات .

فانظر كيف كان الحوار الطيب سبباً فى إسلام رجل — أكرم الله بإسلامه المسلمين ، وجاهد مع رسول الله ﷺ حق الجهاد حتى أتاح اليقين .



وتصور — في غياب هذا الحوار الهادئ — كم ضاعت قيم وخسر الناس الكثير !

فهناك فرق بين أن تقول لمخاطبك :

— من فضلك اجلس ، واستمع ، فإن سمعت خيراً فاتبعه ، وإلا فلا إكراه .

وبين أن تقول له :

سوف تسمع ورجلك فوق رقبتك !

مثل هذه العبارة قيلت لفتيات ، أبين الموافقة على خطيب قادم من أجل الزواج ، ورأى الأهل أنه مناسب جداً ، ورأت الفتاة عكس ذلك ؛ فقالت لها أمها ، أو أبوها .

سوف تتزوجينه ورجلك فوق رقبتك ؛ فما كان منها إلا العقوق ، والرد بالرفض الصريح ، والتهديد بالخروج من البيت دون عودة ، أو الانتحار ، أو قبول الزيجة على مضض ؛ فنجحت في حالة ، وفشلت في حالات كثيرة ؛ لأن الرجل ما زالت فوق الرقبة .

ولو أحسنت الأم الحوار ، أو الأب ، أو الأخ ، أو غيرهم لتغيرت النتيجة ، إما أن يقنعوا فتاتهم ، وإما أن تقنعهم فتاتهم ، وتنتهي المسألة دون خسارة .

جاءت فاطمة بنت قيس للبي عليه السلام وأخبرته بأن رجلين خطباها ؛ فأيهما تختار ، وهما معاوية وأبو جهم ، فقال لها : عليه السلام .

أما معاوية فصعلوك ، لا مال عنده ، وأما أبو جهم فرجل لا يضع العصا عن عاتقه ، تزوجى أسامة ، ما قال لها من أول الأمر تزوجى أسامة بن زيد ، وإنما ذكر لها علة عدم صلاحية الرجلين ، وذكر لها من يصلح لها ، وتصلح له ، وقد تزوجته ، ووجدت فيه الخير كما قالت — رضى الله عنها —

قالت : فكرهته ، فلما ذكره النبي ﷺ تزوجته ؛ فإذا فيه الخير كله .

وما زالت لغة الحوار عندنا لغة لاجئة وإصرار على المخالفة ، يقول الرجل لابنته — مادمت ترغبين في فلان ؛ فلن أحقق لك رغبتك ، ولن تتزوجيه ، وعلى جثتي .

هل عرفت البشرية خصوصاً المسلمين لغة حوار اسمها ( على جثتي ) أو عندما أموت تزوجيه إن شئت !

كيف هذا ، والحوار لغة الإسلام اللينة الطيبة ، ذلك الحوار ، الذي قال ربنا فيه — مع غير المسلمين ( وجادلهم بالتي هي أحسن ) .

وقد عرف الإسلام في الحوار قيمة أراها قد غابت عنا كذلك ، إلا عند من رحمه الله — تعالى — وهي قيمة اختيار الوقت له .

نعم ، لم يعرف الإسلام الحوار أو الكلمات — ونيران النفوس مشتعلة — ، لأن الكلمات سوف تحترق في لهيب تلك النيران .

والدليل على ذلك ما كان من رسول الله ﷺ حين جاءه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد أخذ بتلابيب دشام بن حكيم بن حزام — فقال عليه الصلاة والسلام قبل أن يحاور هشاماً : أرسله يا عمر .

أى قبل أن يحاوره أرسله ، وفك قيده ، ثم حاوره .

والقصة أن عمرة استمع إلى قراءة هشام سورة الفرقان على غير الوجه الذى أقرأه إياه رسول الله ﷺ فلما فرغ هشام من تلاوته ، أخذ عمر بتلايبه وذهب به إلى النبي ﷺ فأمره رسول الله بأن يرسله أولاً ، ثم استمع إلى القصة ، فسأل هشاماً أن يقرأ ؛ فلما قرأ قال ﷺ هكذا أنزلت على ، ثم قال لعمر : اقرأ يا عمر ؛ فلما قرأ قال : هكذا أنزلت على ، أى أن القراءتين صحيحتان ، وقد أنزل القرآن على النبي ﷺ على سبعة أحرف .

واليوم قل من يقول لرجل يمسك برقبة رجل : أرسله قبل أن يحاوره .

فالكثير الغالب أنه يقول له : ماذا فعل هذا الجرم !

حكم عليه قبل أن يخاطبه وقبل أن يسمع إليه ، وقبل أن ينظر في حجته .

وهناك أباء ، لا يحاورون أبناءهم إلا وهم يضربوهم ، وبين الضربة والضربة ، واللسعة واللسعة يقول له :

— هل ستفعل هذا مرة أخرى ؟

فيصرخ قائلاً :

— لا ، لا ، لن أفعل يا أبى ، والله لن أفعل ! يقول ذلك — بلا شك — عن غير اقتناع ، إنه يقول له : لن أفعل ، حتى يرحمه من هذا العذاب .

وأذكر في هذا السياق ما ذكره ابن عبد البر — رحمه الله — في التمهيد ، حيث ذكر أن أمانة كانت عند رجل طيب أمين ، تركها عنده مصعب بن الزبير فسرق المال ، وكان مبلغاً كبيراً ، فاتهم الرجل جارية عنده ، بأنها هى التى سرقته .

فقالت : لم أسرقه ..

فضربها ضرباً شديداً ، حتى قالت : سرت ، فخرج ، وأتى بالناس ليشهدوا أنها سرت ؛ فدخلوا ، واستمعوا إليها وهى تقول ، نعم سرت ، فرفع الأمر إلى الأمير ، فاستدعى الشهود . فقالوا نعم ، نشهد أنها قالت : سرت ، حتى جاء دور محمد بن قاسم رضي الله عنه فقال :

نعم ، سمعتها تقول : سرت ، وعليها أثر الضرب ، فقال الأمير : لولا شهادة هذا الفتى لأقمت عليها الحد ، ولم يأخذ بشهادة الذين قالوا : نعم سمعناها تقول : سرت ..

فإن هذا اعتراف تحت وطأة العذاب كالاقرار الذى يكون بين يدي أمن الدولة وتفنن رجاله في تعذيب المتهم ، حتى يوقع معترفاً على كل قمة يريدونها ..

وقد دخل النبي ﷺ على أم المؤمنين خديجة — رضى الله عنها — بعد أنزل الله — تعالى — عليه الوحي لأول مرة ، وقال : زملونى زملونى .

فما كان منها إلا أن زَمَلَتْهُ ( غطته ) فلما ذهب عنه الروع قال لها : خشيت على نفسى يا خديجة ، وحكى لها ما كان ؛ فقالت له : والله لن يخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ، وتقري الضيف ، وتكسب



المعدوم ، وتعين على نوائب الحق .. الحديث الذى رواه البخارى فى صحيحه وغيره .

والشاهد أنها — رضى الله عنها — زَمَلَتْهُ وتركته ، حتى ذهب عنه الروح ( الخوف والفرع ) ونحن لا نترك الناس حتى يذهب عنهم الروح ، وإنما نطلب منهم أن يقولوا كل شيء وهم على تلك الحالة .

وأذكر أنه من حوالى أربعين سنة ، وكان فى الناس حكماء أن شاباً أتى حماته منفعلاً متوتراً ، وكانت زوجته التى هى بنتها قد سبقته غضبى إليها ، وأول ما دخل عليها على تلك الحالة ناشدته بالله ألا يتكلم فى شيء ، وقالت : أهلاً وسهلاً ومرحباً ، بالله عليك ، اجلس أولاً ، وسألته :

— هل أفطرت ؟

وقامت دون أن تنتظر الجواب ؛ فأعدت له فطوره وشايه ، وهدأت من روعه ، وقالت وهى تناوله بعض اللقيمات : باهنا والشفا ، أنت ولدى وأنت أغلى عندي منها ، هل هى تجرؤ على إغضابك !... لا تقل شيئاً ، أنا سوف أعطيك حقك منها ، ومنى ، ومن كل الناس ، لو أغضبوك ، معاذ الله ، والله يا ولدى لا يهون على أن أراك فى هذه الحالة ...

وبعد ذلك كله سألته :

— قل كل شيء ، واحك بالتفصيل ، فكلى آذان صاغية ، ونادت ابنتها ، وقالت : تعالى ، قبلى رأسه ويديه ؛ ففعلت ، ثم أعادت عليه .

— قل يا ولدى ، إني أستمع إليك .

فدرفت عيناه دمع حنين ومودة ، وقال : ليس عندي شيء أقوله ، أنا الذى أخطأت ، وانفعلتُ عليها ، وكنت على عشم أنها سوف تفهمنى ، وترحمنى ، وأنا الآن أعتذر لها ولك .

قالت العاقلة الحكيمة :

معاذ الله أن تعتذر ، فأنت لم ترتكب جريمة ، وهى زوجتك ، وخادمتك ، ونحن قبلها خدامك .

وصحب زوجته ، وعاد إلى بيتهما فى هدوء ..

لا شك أن هذا الحوار ، وهذا الصنيع يختلف عن موقف امرأة أخرى تقابل زوج ابنتها من على الباب وهو على تلك الحالة قائلة له :

— لك عين ، تأتى إلى هنا بعد كل ما جرى منك ، فيتطاير الشر من عينه ، ويسود قلبه أكثر وأكثر ، ولا يستطع وهو فى تلك الحالة — أن يدّر السيئة بالحسنة ، بل يدرأها بسيئة أسوأ ، وتتفاقم الأمور ، وتتزاحم الشرور ، ويكون ما يكون من مبالغات فى الأذى من الجانبين .

والإسلام يأمر بالكلمات قبل الحركات وقبل الضرب ، ألا ترى

إلى قوله — عز وجل — ﴿ وَالَّذِينَ تَخَافُونَ شُرُوهُمْ فَوَضُّوهُمْ سُبُلًا ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿ النساء : ٣٤ ﴾

ومن الناس من يبدأ بـ ( التلطيش ) ولا يعرف الكلمات ، فلمن تقال الكلمات ؟ ومتى تقال ؟

وهل تصلح الكلمات بعد الضرب والجرح ؟ وهل يصلح الاعتذار ؟  
فالحوار الذى عرفه الإسلام .

#### ١ — السبيل الأول للتخاطب .

حتى مع الكفار ، روى ابن أبي شيبة فى المصنف ، وغيره من الصحاح أن النبي ﷺ كان إذا بعث جيشه أو صاهم بأن يدعوا الناس أولاً إلى الإسلام ، أى لا قتال قبل الحوار .

وحين قتل أسامة بن زيد رجلاً من المشركين بعد أن سمعه ينطق بـ ( لا إله إلا الله ) ظاناً أنه قالها خوفاً من السيف غضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً ، وقال له : وما تفعل بـ ( لا إله إلا الله ) ودفع ديته ﷺ .

ونزل فى ذلك قول الله — تعالى — من سورة النساء الآية ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَحَ إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمْ لَسَتْ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (١٦)

٢ — وأن الحوار كلمات ، والكلمات قول ، والله — عز وجل — يأمرنا بالعدل فى القول قال سبحانه وتعالى ( وإذا قلتم فاعدلوا ) .

٣ — وأن الحوار معادلة ، شأنه شأن كل قضايا الدين فلا يستحوذ به إنسان على آخر ، وإنما علينا أن نعطي الآخرين حقهم فيه كما أننا نرى أن لنا الحق فيه .

فليس من الحوار الإسلامى أن نقول لمخاطبك اسكت ... اخرس .. لا تنطق ..

فلماذا تدعى أنك تحاوره إذا كنت تأمره بالخرس والسكوت !

قال تعالى ( وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ) ..

هذا ، وقد شاع بين الناس النطق بالحكم قبل الحوار ، أى لمن يحاوره .. طبعاً ، أنا أكبر منك ، أكثر خبرة بالحياة ، وكذا ، وكذا ، أى اسمع ما أقول دون مناقشة أو اعتراض ، أو جدال ..

٤ — أن لغة الحوار قصيرة الألفاظ ، عظيمة المعانى ليس فيها ( رططة )

قال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (٧٠) الأحزاب: ٧٠

٥ — أننا يجب أن ننتهى من الحوار إلى نتيجة

قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَهِمَ فِي رَيبِهِ أَن ءَاتَتْهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبرَهِمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ ۚ



قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ  
فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ البقرة: ٢٥٨

وحين حاور إخوة يوسف أخاهم يوسف عليه السلام هم لا يعرفونه ، وقالوا  
له : إن له أبا شيخا كبيرا فنخذ أحدا مكانه .  
ورد عليهم بمعاذ الله ..

قال الله — تعالى — ﴿ فَلَمَّا أَسْتَنْسَوْا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾  
يوسف: ٨٠ ، فلا مجال إلى حوار ميئوس منه ، ورحم الله الخليل بن  
أحمد ، حيث قال لمن رآه ميئوسا منه في تعلم العروض والقوافي : قطع هذا  
البيت .

إذا لم تستطع شيئا فدعه .

وجاوزه إلى ما تستطع .

فانصرف الرجل ، ومضى إلى غايته يتقن السبيل إليها .

ونحن نضيع أعمارنا في كلمات لا تفيد ، ولم نصل إلى ما قاله كعب في  
( بانت سعاد ) .

وَقَالَ كُلْ خَلِيلٍ كُنْتُ أَمْلُهُ

لَا إِلَهِيَّكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولٌ

فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِي لَا أَبَالِكُمُ

فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولٌ

قال : خلوا سبيلي لا أبالكم ، ومضى ، ونجح في مضيه :

حيث جاء النبي ﷺ معتذرا ؛ فقبل منه ، وعفا عنه .

وحكى لنا القرآن الكريم حوار كلیم موسى عليه السلام والعبد الصالح .

والذي بدأ بقول موسى :

— هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً

— قال إنك لن تستطيع معي صبرا ، وكيف تصبر على ما لم تحط به  
خبرا :

— قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا .

— قال فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء ، حتى أحدث لك منه ذكرا .

فلما تبعه ورآه يخرق السفينة ؛ قال :

أحرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا .

— قال : ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا .

— قال : لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا .

فلما رآه يقتل الغلام ..

— قال : أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا .

— قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا .

— قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً .

فلما رآه يقيم جداراً في قرية أبي أهلها أن يضيفوهما ..

— قال : لو شئت لاتخذت عليه أجراً .

— قال : هذا فراق بيني وبينك .

قال الله — تعالى — ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ۚ خُبْرًا ۝٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝٦٩ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۝٧١ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۝٧٣ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا رَّكِبَةً بَعِيرٍ نَّفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ۝٧٤ ﴿ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٥ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا ۝٧٦ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ ۚ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝٧٧ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا أَوْيَلَ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۝٧٨﴾ الكهف: ٦٥ — ٧٨

ونحن لا نعرف الفراق ، ولا نعرف النتائج في الحوار وإن ظللنا ساعات نتحاور ، وشاهد أى برنامج يتحاور فيه الناس فيما يسمى ( بالتوك شو )

تجد الناس لا ينتهون إلى نتيجة ، ولا يَخْلُصُونَ إلى فائدة ، وقد يقطع عليهم المخرج حوارهم ؛ لأن زمن البرنامج قد انتهى رغما عنه وعنهم ، وما حصدنا إلا وجعاً في القلب ، وصداعاً في الرأس ؛ فلمن تقال الكلمات ؟ ، لمن نريد أن تقدم لهم إضاءة وتنويراً وخلاصة ، أم لمن نريد أن نوجع قلوبهم ، وتصدع رؤسهم .

كما أننا نضيع العمر في كلمات ، نسرف فيها ، ولا نغل التكرار قال تعالى ( قال هذا فراق بيني وبينك ) بعد المرة الثالثة التي جاء فيها ( قد بلغت من لدني عذراً ) .

ألم نبلغ بعد عذرنا ، ونحن نظل فنقول الكلمة نفسها منذ سنوات ، دون فائدة ، فلم هذا الإلحاح العجيب !

ومن ثقف الناس على تلك السامة التي لا تمل . وقد كان رسول الله ﷺ يتخول الناس بالموعظة خشية السامة ، وهو أبلغ الناس ، وأضبط الناس لما يقول ( وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ) .

قالت أم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — ما كان رسول الله ﷺ يسرُّد الكلام كسرِّدكم ، وإنما كان يقول الفصل ، الذى يحفظه من سمعه .



٦ — ولا بد من أن يكون من نحاوره مستعداً نفسياً للحوار ؛ فلا يحاور من هو على غضب ، ونحوه ، ومن قواعد الفقه الإسلامى « ألا يقضى القاضى بين اثنين وهو غضبان » .

٧ — وأن لا يقاطع أحد المتحاورين محاوره .

فليس من أدب الحوار أن تقطع عليه جملته ، أو أن تحجر عليه فكرته ، أو أن تشتت عقله؛ فتغلبه بالصوت دون الحجة ، ومن نوادر ما يحكى عن الأصمعى عالم اللغة أنه صرح فى مرض موته أنه ناظر سيبويه وانتصر عليه مع أن سيبويه أعلم منه ، وقال : لأن سيبويه كان فى لسانه لكمة، وإذا أثاره أحد لم يستطع الكلام ، فأثاره الأصمعى ؛ فلم يستطع سيبويه الكلام ؛ فظن الناس أنه غلبه .

## الفصل الثالث

## الجمع بين المعانى والكلمات

نحن في حاجة إلى أن نتعلم الكلمات

في هذا الفصل الأخير من كتاب ( لمن تقال الكلمات ) أود أن أقول :  
إننا في حاجة إلى أن نتعلم الكلمات فنحن في أزمة حقيقية ، في تلك  
القضية .

ألا ترى أن خريج الجامعة اليوم يعجز عن كتابة طلب وظيفة ، يمليه  
عليه عامل بسيط ، لأنه يحفظ صيغته ، يقول له :

اكتب بسم الله الرحمن الرحيم

سعادة الأستاذ رئيس مجلس إدارة الشركة ..

تحية طيبة وبعد ..

فإني مقدمه إلى سيادتكم .....

فيقول طالب الوظيفة وخريج الجامعة .. نعم نعم فإرد عليه الساعي ...  
اكتب اسمك :

إنه ينتظر أن يملأ عليه اسمه ، واسم الشهادة التي حصل عليها ،  
وأرغب في تعييني في وظيفة كذا ، المعلن عنها بتاريخ كذا .

حتى يقول : وتفضلوا بقبول خالص التحية ثم يقول له بعد ذلك .

اكتب اسمك ، وقع ، واكتب تاريخ اليوم .

وهذا الذي يعجز عن كتابة سطرين كيف يكتب رسالة إلى أبيه أو إلى  
أمه أو إلى أخيه أو إلى صاحبه .

مما كان يطلق عليه أيام الأدب : الرسائل الإخوانية .

لقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال : إن من البيان لسحراً ، بعد أن  
استمع إلى خطيب ماهر ، وقد استدعى له خطيبه ثابت بن قيس بن شماس  
الأنصاري كما استدعى لشاعر الوفد الذي فيه هذا الخطيب شاعره حسان  
بن ثابت .

ومن قبل قال ﷺ لشاعره حسان : رد عليهم ( أى على المشركين )  
وروح القدس معك .

وكان عليه ﷺ يتمثل بالشعر ..

روى البخارى في صحيحه قوله ﷺ

أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد ..

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ

وتمثلت أم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها —

بقول الشاعر :

مات الذين يعاش في أكنافهم

وبقيت في كنف كجلد الأجر



ونحن نقرأ كلمات ترق لها القلوب ، بل تذرف في تضاعيفها الدموع ،  
ومن ذلك قول الحلاج قبيل قتله :

كَمْ أُسْلِمَ النَّفْسَ لِلْأَسْقَامِ تُتْلِفُهَا

إِلَّا لَعَلَّمَنِي بِأَنَّ الْمَوْتَ يُحْيِيهَا

ونظرة منك يا سؤلى ويا أملئ

أشهى إلى من الدنيا وما فيها

نفس الحب على الآلام صابرة

لعل مُتْلِفَهَا يوماً يداوئها

وما أكثر الأمثلة التى تفيض بها كتب التراث ، وأنا لا أريد أن يكون  
الناس جميعاً شعراء ، أو أدباء كباراً ، وإنما أريد الحد الأدنى من  
إقامة عبارة يكون لها أثر السحر فى ضوء قول النبى ﷺ « إنَّ من البيان  
لسحراً » .

وقد قال الله — تعالى — لموسى وأخيه هارون وقد أرسلهما إلى فرعون :  
( فقولاً له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى ) .

قال : قولاً لنا :

وكأن النفس بفطرتها تعلم لين الكلمات من شديدها ، وقد  
قال موسى ﷺ فى صدر بعثته الشريفة قال الله — تعالى —

﴿ وَأَخِي هَئِثُورٌ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۚ إِنِّي  
أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ (٣٤) القصص: ٣٤

نحن فى حاجة إلى هذه الفصاحة التى هى إبانة وإعراب عما فى النفس  
بأسلوب خال من التعقيد وضعف التأليف وتنافر الحروف ، وغير ذلك من  
عيوب الفصاحة المعروفة .

وقد سألت بعض الشباب عن رأيه فى وجود المعنى وفقد الكلمات ، هل  
يفضل ذلك أم يفضل وجود الكلمات وفقد المعنى ، فأجابونى بثقة ويقين :  
الأفضل وجود المعنى وفقد الكلمات .

وكنت أود أن يكون جوابهم : يا حبيذا وجود الإثنين معاً ، وجود المعنى  
ووجود الكلمات .

لأن سوق الحياة لا بد أن يتوافر فيها ..

أمران :

الأول : وجود السلعة المطلوبة

والثانى : توفر ثمنها عند الراغب فيها

أي أننا فى حاجة إلى وجود السلعة ، ووجود ثمنها ، فلو توفرت السلعة  
فى السوق ولم يكن معك ثمنها فما عسى أن تفعل !

ولو كان معك مالٌ يربو فوق مال قارون ونزلت السوق ولم تكن فيها  
السلعة المطلوبة ، فما عساك تفعل بالمال الوفير !

وكذلك الحال بالنسبة إلى المعاني والكلمات ، لابد من وجود معنى الكرم والجود والنبيل والشجاعة والوفاء والصدق ، والتضحية .

ولابد من وجود الكلمات التي تعبر بها عن هذه المعاني ..

لقد حارب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يوم بدر ، ورمى ، فكان أول من جمع له رسول الله ﷺ بأبيه وأمه ؛ فقال له : ارم بأبي أنت وأمي !

ألا يدل ذلك على فقداننا الكلمات التي تقوها في مثل سعد ، من زوج يأتي أولاده وزوجه بالخيرات ، فيقولون له ذلك لمن يقال ( بأبي أنت وأمي ) إن لم تقلها للمعطاء السخي الكريم !

وما الذي يشعر به المعطاء السخي إذا قدم الخيرات لمن ينطق لكنه أبكم ، ومن يرى لكنه أعمى .

إن من الناس من يعطى برغم بُكمٍ مَنْ يُعطيه ، لكن الكثير منهم يحجم بعد ذلك عن العطاء .

حدثني رجل كريم رأيته يحمل تحفة غالية من الهدايا القيمة ، وقال : إن هذه التحفة لامرأة أجنبية ، وأقسم بالله أن ليس بينه وبينها سوء ، وأنه لا يختلي بها ، ولكنه يسمع منها كلمات ما سمعها يوماً من زوجته التي تزوجها منذ ثلاثين سنة ، قال : تُطربني كلماتها ، وتُشعرني أني إنسان ليس لي مثيل في الدنيا .

بخلاف أم الأولاد التي طالما أتيتهما بمثل هذه التحف وزيادة ، فما زادت على قولها : ( حلوة ) .

وأقسم بالله أنها من تحت ضررها .

مَنْ علّم الأمة هذه الثقافة السوداء !

وقد كتبت مقالاً نشرته بالأهرام العربي من عشر سنين حول هذا المعنى عن رجل كان في زيارة لأقاربه بكفر الشيخ ، ومرّ على عشة لامرأة تصنع فيها الشاي للمارة بالطريق ، ووجد سيارته تتهدى نحوها ، وسألها كوب الشاي ، فهبت ، وأعدته في طرفة عين ، حيث كان ماؤها يغلي ، ولا حظ أن عندها مجموعة من القُللِ ، فسألها برفق : هل يمكن أن تُعطيني قُلَّةً من هذه ؛ فابتسمت ، وقالت : من عيني ، كلها إذا أردت ، وجاءته بأجلها وأجدها ؛ فأعطاهما خمسين جنيها ، فقالت : كثير يا سعادة البيك !

فقال : أنت تستحقين أكثر :

فأمطرته بكلمات طيبة جميلة ، يعطيك ما يحرمك ... يسعدك ، ويوعدك ، ويفتح لك باب ما يكون عليه بواب ، ويوسع رزقك ، ويجب فيك خلقه ، وقَبَلَتِ الخمسين جنيهاً ، وكأنها طفلها الصغير الذي تقبله في مودة صافية وحب حقيقي ، ووضعتها في صدرها ، وكأنها تبث فيه معنى الحياة .

ومضى الرجل بسيارته والدموع تترقرق في عينيه ؛ لأنه خرج في الصباح من أجل تلك الزيارة ، وترك لزوجته خمسمائة جنية ، فما ابتسمت ، وما دعت له ، وما قالت له : شكراً ، وإنما قالت له وهي بين اليقظة والنام : ضعها عندك .



توقف على اليمين ، وأخذ من ماء القلة شيئاً مسح به عينيه ، وكان ماءها ماء الحياة ، ثم انطلق وهو يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله .....  
هى الدنيا ..... يا الله !

نعم هى الدنيا التى قلبنا حالها ، وأفسدنا آياتها بسوء فهمنا وفحش جهلنا ، وانصرفنا عن الأولويات ، وقولنا الطيب من الكلمات للأجانب ، وقولنا الخبيث من الكلمات للأقارب ، والدين يأمرنا بأن نقول طيب الكلمات للناس جميعاً ، لكن الأقارب بها أولى .

لقد خلقها الله دنيا جميلة بكل ما أودعه فيها من مواطن الجمال ، وأبيننا نحن إلا أن تكون دنيا قبيحة بما أحدثناه فيها من سوء وشر ، ومن ذلك الكلمات .

من أجل هذا رأيت أن علينا أن نربي في أولادنا المعاني والكلمات ، فإن صاحب المعاني كذلك عليه أن يكون صاحب كلمات .

ألا ترى إلى قول الأبرار ، الذين أطعموا الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، ماذا قالوا !

قالوا ما ذكره لنا ربنا في سورة الإنسان : ﴿ إِنَّمَا نُنْطِغِمْكُمْ لُوجَهَ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ۝٩﴾ الإنسان: ٩

وإلى النبي ﷺ الذى دعا أصحابه إلى طعامه ؛ فقال لهم : هَلُمُّوا إِلَيَّ هَذَا الْعَدَاءِ الْمُبَارَكِ !

ومن ثم قلت من قديم : إن رسول الله ﷺ كان يُقَدِّمُ الْحَيَاةَ عَلَى طَبَقِ الْحَيَاةِ ، وَنَحْنُ نُقَدِّمُ الْحَيَاةَ عَلَى طَبَقِ الْمَوْتِ .

ولكى نُقَدِّمُ الْحَيَاةَ عَلَى طَبَقِ الْحَيَاةِ تأسيا برسول الله ﷺ يجب علينا أن نطلق الوجه فى وجوه من نُقَدِّمُ لهم أسباب الحياة ، وأن نبتسم فى وجوههم ، وأن نشئ عليهم دون مبالغة ، والله در القائل من قديم .

إِذَا جَاءَكَ الضَّيْفُ فَابْسِمْ لَهُ

وقدم إليه وشيك القرى

والقرى : بكسر القاف وفتح الراء : ما يقدم للضيف من تحية ، أى من طعام وشراب .

يقول الشاعر : إذا جاءك الضيف فالفقه بابتسام ، وقدم إليه التحية عاجلة غير آجلة ، لأنه قادم إليك على مشقة ، أو سفر وقد قال عمر — رضى الله عنه — لرجل قدم عليه يبشره بفتح مصر .

— كل ؛ فإن المسافر يحب الأكل .

وليس من تقديم الحياة على طبق الحياة أن نذكر لمن نزل بنا ضيفاً غلاء المعيشة والأسعار وما بذلناه من جهد من أجل إسعاده ، أو صناعة شئ من أجله من طعام وشراب ومن قديم كان الكريم الذى يوقد ناره بالليل ؛ ليأتى على ضوءها السارى بالليل ، فيؤويه ، ويطعمه ، كان يقدم له القرى ، ولا يقعد إليه يسأله ، أى أنه كان يتركه على راحته ؛ يأكل على راحته كذلك .

والإسلام أكثر كرمًا ، وأكثر أدبًا ،

وقد قال الله — عز وجل — للنبي ﷺ ﴿ وَالْضُّحَىٰ ١ ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ ﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ٤ ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ٥ ﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ٦ ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ٧ ﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ٨ ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ٩ ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١٠ ﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ١١ ﴾ الضحى: ١ - ١١ فنهى عن فخر السائل ، وقهر اليتيم ، بل جعل ذلك تكذيبًا بالدين

ألا ترى إلى قول الله — عز وجل — : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ١ ﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ٢ ﴿ وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ٣ ﴾ الماعون: ١ - ٣

ونهى الذين آمنوا أن يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى فقال — تعالى — ﴿ يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ رَبَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ٦٦ ﴾ البقرة: ٢٦٤

فليس من تقديم الحياة على طبق الحياة أن تنهر سائلا ، أو أن تقهر يتيمًا ، وإنما منه أن تعطيه لوجه الله — عز وجل — ولتكن كما قيل في الكريم

..... كأنك تعطيه الذى أنت سائله

فالمعطى يجب أن يعطى ، ومع العطاء المادى كذلك العطاء المعنوى بطيب الكلمات ؛ فقد قال الله — عز وجل —

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ ١ ﴾ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ٢ ﴿ البقرة: ٢٦٣

وعلى الآخذ أن يكافئ من أعطاه إن كان قادراً على ذلك ؛ فإن كان عاجزاً دعا له وشكره .

فقد روى ابن عبد البر فى التمهيد حديث رسول الله ﷺ ( من أسدى إليكم معروفا فكافئوه ، فإن لم تقدرُوا فادعوا له )

إنها المعادلة التى بنى عليها الإسلام ، أن تحسن إلى الناس ، وأن يحسنوا إليك ، قال — الله — تعالى — ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِنَحِيَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ١ ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ٢ ﴿ النساء: ٨٦

وكان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويشب عليها ، و زيادة ، أى أنه ﷺ كان إذا أهداه أحد الناس هدية قبلها منه وأعطاه خيراً منها .

بل إنه ﷺ كان إذا أهدى إليه إنسان هدية ، أكل منها ، وأشعره بأنها تحفة ، ذكر ذلك الواقدى فى المغازى .

حيث قال : إنه ﷺ ، كان على سفر ؛ فجاء أعرابى وأهداه قشاء صغيرة ، فأخذ رسول الله ﷺ يأكل منها ، ويريه أنها تحفة ، وأرسل منها إلى أم سلمة ؛ لتأكل منها .



طائفة من كلمات القرآن الكريم ..

وهذه طائفة من كلمات القرآن الكريم التي ينبغي أن تكون نصب أعيننا ، ومنها :

١- ( ما شاء الله لا قوة إلا بالله )

تقال عندما يرى المسلم نعمة الله عليه ؛ قال تعالى ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ الكهف: ٣٩

٢- ( سبحان الله وبحمده ) .

يقولها المسلم كلما أصبح ، وأمسى ، وحين الظهيرة .

قال الله — عز وجل — ﴿ فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۚ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ يُظْهِرُونَ ۚ ﴾ (١٨) الروم: ١٧ - ١٨

وفي كل وقت ، متى وجد إلى ذلك سبيلاً ، قال الله — تعالى — ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۚ ﴾ الطور: ٤٨

وقال عز وجل : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ (١٣٠) طه: ١٣٠

وقد روي البخارى في صحيحه قول النبي ﷺ ( كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ) .

ومن آيات التيسير وثمراته أنه منجاة من الكرب ، قال تعالى في يونس عليه السلام : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ (١٤٣) لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿ (١٤٤) الصافات: ١٤٣ - ١٤٤ ٣- ( إنا إلى الله راغبون ) .

وذلك إذا كان العبد راغباً في أن يبدله الله — تعالى — خيراً مما أخذ منه ، قال تعالى في آيات سورة القلم ( ١٧-٣٣ )

﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ (١٧) وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿ ١٨ ﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿ ١٩ ﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿ ٢٠ ﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿ ٢١ ﴾ أِنِ اعْتَدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿ ٢٢ ﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْخَفُونَ ﴿ ٢٣ ﴾ أَن لَّا يَدْخُلْنَهَا أَلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿ ٢٤ ﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرٍِّ قَدِيرِينَ ﴿ ٢٥ ﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَٰلُونَ ﴿ ٢٦ ﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿ ٢٧ ﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿ ٢٨ ﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿ ٢٩ ﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوُمُونَ ﴿ ٣٠ ﴾ قَالُوا يَا بُولَلَاءَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿ ٣١ ﴾ عَسَىٰ رَبَّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿ ٣٢ ﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿ ٣٣ ﴾ القلم: ١٧ - ٣٣

٤- « حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون »

يقولها الراغب في الغنى ، قال الله — تعالى — ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ (٥٩) النوبة: ٥٩

ولكن مَنْ أراد الغنى قال هذه الكلمات وهو يعمل ؛ فإن الكلمات وحدها لا تحقق غنى بل لا تحقق شيئاً كما يتوهم الغافلون الذين لا علم لهم بهذا الدين ، يزعمون أن الكلمات وحدها ترجع الغائب دون البحث عنه ، وتحفظ المال دون حرز يحميه ، وتنجح الطالب دون أن يعتكف على كتبه ، وتدخل الجنة دون عمل صالح ، ومكابدة للشهوات ، وبذل أقصى الجهد في الطاعات ، وهذا من أسباب تخلف الأمة .

٥ - ( حسبنا الله ونعم الوكيل ) .

يقولها المسلم إذا أخذ بالسبب ، وتوكل على الله — عز وجل — فقد نزلت في الصحابة الأخيار رضي الله عنهم حين قيل لهم : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ؛ فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ؛ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧٣ ﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ١٧٤ ﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ فَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ١٧٥ ﴾ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١٧٦ ﴾ آل عمران : ١٧٢ - ١٧٥

وليس قولنا ( حسبنا الله ونعم الوكيل ) دعاء على أحد كما يتوهم كثير من الناس .

٦ - ( سمعنا وأطعنا ) .

يقول ذلك المسلمون إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم :

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥١ ﴾ النور : ٥١

٧ - أى كلام طيب .

يقوله المسلم إذا خاطبه جاهل ؛ لقول الله — عز وجل — في آية الفرقان : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ٦٣ ﴾ الفرقان : ٦٣

فقال الكلمات الطيبة للجاهل ؛ حتى ينتهي الموقف بسرعة ، لأن الرد على السوء بالسوء ليس من أخلاق المسلمين ، وهو يؤدي إلى استمرار ذلك السوء ، وقد يغیظ العبد الصالح بلا جدال ؛ لأنه ليس في مستوى الجاهل ، الذى إن كال له أوفى ، وهو لا يستطيع أن يجاريه ؛ لأن قاموس السوء ليس متوفرًا في لغته ، بخلاف الجاهل الذى تتوفر عنده قواميس .

٨ - القول اللين .

والقول اللين كالفعل اللين ، كالمادة اللينة ، غير الصلبة والمسلم لين الجانب .... إذا ملت إليه آواك وإذا احتجت إليه أعان ..... وإذا استقرضته أقرضك وإذا جنحت إليه فقد جنحت إلى برد وسلام



قال الله — تعالى — في سياق منه على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين :

﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ۝ ١٥٩ ﴾ آل عمران: ١٥٩

والكلام اللين كالفعل اللين

وقد قال الله — تعالى — لموسى وأخيه — عليهما السلام — حين أرسلهما إلى فرعون الطاغية : ﴿ فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ۝ ٤٤ ﴾ طه: ٤٤

وقد قال العلماء : تركهما الله — عز وجل — على رجائهما في إيمانه مع أنه — عز وجل — يعلم منذ الأزل القديم أنه لن يؤمن ..

وأقول : كذلك لكى يكون ذلك منهجاً للناس إلى يوم القيامة ، أن يقدم العبد الكلام اللين على رجاء أن يؤتي ثماره ، فما علينا إلا الأخذ بالأسباب ، وعلي الله — تعالى — وحده النتائج .

ولين الكلام الذى هو من لين الجانب من أهم الأسباب التى تحمل على متنها الرجاء ، أو يحملها الرجاء على متنه ، وينطلق بها ، فإن حصل المراد فالفضل لله رب العباد ، وإن تكن الأخرى ، فالله يفعل ما يشاء .

٩ — القول الحسن .

والله — عز وجل — يقول : ( وقولوا للناس حسناً ) والحسن فى هذا

ولن يكون إسلام المرء حسناً ولسانه سيئ فى ألفاظه ومعانيه ، والله — عز وجل — يقول ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۚ النحل: ١٢٥ ﴾

ولن تكون الموعظة حسنة إلا بالضوابط الآتية :

( أ ) أن تكون واضحة الفكرة .

( ب ) وأن تكون سهلة العبارة .

( جـ ) وأن تكون محققة المعادلة بين الترغيب والترهيب .

( د ) وأن تكون موجزة ؛ تقبلها النفوس ولا تسأم والمسلم — كما قال الصحابة — يجب أن يكون ثوبه حسناً ، وأن يكون نعله حسناً ، وأن يكون اسمه حسناً كذلك ، وأن يكون قوله حسناً ، والله در القائل من العوام .

( الكلمة الزين تسد فى الدين )

١٠ — عفا الله عنك .

ومن الكلمات القرآنية الغائبة عن كثير من الناس فى زماننا تقدم العفو على العتاب ، قال الله — عز وجل — ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ۝ ٤٣ ﴾ التوبة: ٤٣

فقدم ربنا — عز وجل — العفو على العتاب ، وكثير من الناس يقدم المشقة على التيسير ، والعذاب على الرحمة ، والإساءة على الإحسان ، يعذبك وفي النهاية يقول لك : اذهب فقد عفوت عنك .

وقد كان رسول الله ﷺ خلقه القرآن ..

وقد فتح الله له مكة ، وقال لأهلها الذين كفروا به وعذبوه : ما تظنون أنى فاعل بكم اليوم ؟

قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء :

ما قال لهم : ( هل تذكرن ما كان فيكم ، ألم تكفروا بالحق إذ جاءكم على يدي ؟ ألم تقولوا : شاعر وساحر ومجنون ، ألم تخرجوني من وطني ؟ إلى آخر ما لا تتحمله المجلدات وإنما قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وحين قال إخوة يوسف عليه السلام تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين — قال لهم : ﴿ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١٢)

١١ — عدم الاستقصاء في العتاب .

والمسلم الذي يجب أن يتدبر القرآن إذا عاتب ؛ فإنه لا يستقصي في عتابه ، فيذكر كل شيء ، بل مع الأسف يُضيفُ إليه من عندياته ، فيزيد ما لم يقله أو يفعله الذي يعاتبه .

والدليل على أن عدم الاستقصاء في العتاب من خلق المسلم قول النبي ﷺ في آية التحريم ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (٢) التحريم : ٣

فإن أردت أن تعاتب أحداً خطأ في حقك في أربعة أشياء ؛ فاذكر له شيئاً أو شيئين ، ألم تر أن رسول الله ﷺ حين عاتب بعض أزواجه عاتب في بعض ، وأعرض عن بعض .

١٢ — ذكر الحسن والإعراض عن السوء .

كلما قرأت هذه الآية (١٠٠) من سورة يوسف ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٠٠) يوسف : ١٠٠

تذكرت ما نحن فيه من معضلات في كلمات السوء فأنت كما ترى في هذه الآية تقف على كلمات يوسف عليه السلام لأبيه — فقد ذكر له فيما ذكر أن الله أخرجه من السجن ، ولم يذكر له عهده به ، وقضاءه بضع سنين فيه .

إنه ذكر الحسن وإخفاء السوء

ويا ليت الأمة الإسلامية بكل أفرادها تتأمل هذا المعنى



فقد كثر ذكر السوء ، وإخفاء الحسن

ولو أن رجلاً مثقفاً حكى لأبيه ما حكى يوسف عليه السلام لقص عليه دخوله السجن وهو برىء ، وبقائه فيه بضع سنين ، وما جرى له فيه من ظلمة عاشها بدنه ، وضيق عاشته نفسه ، وإحساس بالمرارة والظلم شعر بها قلبه حتي يقطع قلب أبيه .

هل عاد مسافر من الخارج وقد فتح الله عليه جمال وفير ، وقبل ذلك عانى معاناة شديدة ، فحكى لأهله ما من الله به عليه ، دون أن يذكر لهم تفاصيل تلك المعاناة ، يوماً بيوم ، وساعة بساعة !

ماذا بقي من أخبار سعيدة ، بل ماذا بقي من إحساس بالمال والسعادة وقد ملئت النفس بأخبار الشقاء والمعاناة .

هذا من تنغيص النعم ، ومن منغصاتها كذلك أن يذم بعض صنوفها ، وأن تذكر العلل عندها ، ويكثر النفخ ، وذكر الأمراض والعلل ، وأن يذكر الزوج طريقة أمه التي لا يعلى عليها في إعداد ذلك الصنف .. أو ذاك ، الأمر الذي يوهم زوجته بأنها لا تحسن إعدادة ، وهي في الحقيقة قد تكون أمهر من والدته واتقن !

١٣ — القول البليغ .

وفي آية النساء يقول الله — عز وجل — ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ (النساء: ٦٣)

وذلك في المنافقين ، أمر الله — تعالى — رسوله ﷺ أن يعرض عن المنافقين لعل في ذلك مصلحة لهم بأن يتوبوا ، ثم أراه أن يقول لهم قولاً بليغاً في أنفسهم من التهديد والوعيد بالقتل ، فوعيده ، ذكره الزمخشري في الكشف ١/٤٠٧ — ٤٠٨

فلمن تقال كلمات الوعيد ، والتهديد الصريحة ؟

إنما تقال للمنافقين الكاذبين ، فكيف تقال للمسلمين في المواعظ والخطب ، وكيف تقال للولد ، والزوجة ، والوالدين .

١٤ — التعريض بالخطبة .

والتعريض بالخطبة بكسر الحاء من الكلمات غير الصريحة فيها ، وذلك إذا كانت المرأة في العدة ، يشعرها بأنه راغب فيها ، وكن بعد اقتضاء عدتها .

قال الله — تعالى — ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٣٥)

والأمثلة التي ذكرها المفسرون للتعريض أن يقول لها : مثلك نافقة ، ومنذ وقت طويل وأنا أرغب في امرأة صالحة ، ونحو ذلك ولكن لا تصح الخطبة في العدة ، ولا العقد ، والعقد أشد ؛ إذ لو تم فسخ العقد ؛ لأنه باطل .

## ١٥ - كلمات الدعاء .

والعلماء يقولون : إن أفضل الدعاء وأعلاه دعاء القرآن الكريم ، ومنه قول الله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ البقرة: ١٢٦

وفي آية إبراهيم : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْعَلْنِي وَمَنْ يُبْنِي عَنْ تَعْبُدِ الْأَصْنَامَ ﴾ إبراهيم: ٣٥ وتأمل هذا الدعاء ، الذي يستفاد منه أمران :

الأول : أن الدعاء بالأمن خير الدعاء ؛ لأنه إذا تحقق تحقق كل شيء ، وعمل الناس ، واستثمروا أموالهم ، وربحت تجارتهم ، وانتعش اقتصادهم ، واستثمر غيرهم عندهم ، وقد منّ الله - تعالى - على عباده بتلك النعمة الكبرى : ﴿ لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۚ إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ ١ ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ ٤ قریش: ١ - ٤

والثاني : أن إبراهيم عليه السلام دعا للبلد كله بالأمن ، ولم يكن له فيه إلا ولده إسماعيل وأمه هاجر ، وخير الدعاء ما كان عامًا .

ومن ذلك قوله - تعالى - الذي أمرنا بأن ندعو به .

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

وفي صحيح البخارى يقول ﷺ ( مَنْ يَرِدُ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفْقَهُ فِي الدِّينِ ) .

ومن ذلك قوله - جل وعلا - : ﴿ رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ الكهف: ١٠

قال أبو حيان في البحر المحيط : إنه دعاء جامع مانع

أى أنه يغنى عن دعاء العمر كله ، فلو استجابه الله فرحنا في الدنيا بكل ما يجعلها حسنة ، من صحة ، وعافية ، وزوج صالح ، وجار حسن ، ومال وفير ، يحقق لنا حياة طيبة .

﴿ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

( وقد كان هذا الدعاء أكثر دعاء النبي ﷺ )

آتانا الصحة والعافية ، والزوج الصالح ، والذرية الطيبة ، والخيرة الحسنة ، والتوفيق في كل الأمور ورحمنا في الآخرة فأدخلنا الجنة ، وهو سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ فَمَنْ رُحِّحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴾ آل عمران: ١٨٥



اللهم علمنا ما جهلنا وذكرنا ما نسينا ، وأطب ألسنتنا بذكر تقبله ، ولفظ  
 ترضاه ، وأرزقنا الحكمة ؛ فمن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ،  
 وارزقنا من يُسمعنا حسن الكلمات ، فيحى بها نفوسنا ، ويُطرب بها أسماعنا ؛  
 إنك وليّ ذلك والقادر عليه ، عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

### أ.د مبروك عطية

الأستاذ بجامعة الأزهر الشريف

والداعية الإسلامى